القدِّيس باسيليوس الكبير
رئيس أساقفة قيْصريَّة

❖ تعالوا أيها الأرثوذكسيِّين لنسجد للرب يسوع المسيح...

فإن الأصوات الصادقة التي للأنبا باسيليوس العامود المعظَّم قد ملأت كل العالم...

فمن يقدر أن ينطق بالقوّات العظيمة والعجائب الكثيرة التي للأنبا باسيليوس؟ وأي لسان جسداني يستطيع أن يتلو كرامته ونسكيَّاته؟...

مرحبًا بقدومك إلينا في هذا اليوم يا معلِّم التقوى ومؤدِّب كل المسكونة..."

الدفنار – ٦ طوبة

دُعي **بالكبير**، بسبب مؤهِّلاته الفائقة في التدبير الكنسي وكمفسِّر عظيم للعقيدة المسيحيَّة، ودفاعه عن الأرثوذكسيَّة خاصة ضد الأريوسيَّة مثل القدِّيس أثناسيوس بابا الإسكندريَّة، كما عُرف كأبٍ للرهبنة في المنطقة، واهتم بخدمة العبادة، فوضع ثلاثة نَصوص لليتورجيًّا الإفخارستيا، لازالت الكنيسة القبطيَّة تستخدم أحدها.

اشتاق مار أفرام السرياني أن يراه. رأى يومًا عامودًا من نور وسمع صوتًا يقول: "هذا هو باسيليوس الكبادوكي". فقام وذهب إلى قيْصريَّة حوالي عام ١٧٣م، ودخل الكنيسة يوم الأحد، وحضر قداس عيد الظهور الإلهي بملابسه المهلهلة. وفي أثناء العظة شاهد كلمات القدِّيس باسيليوس خارجه من فمه وكأنها ألسنة ناريَّة صغيرة تستقر في قلوب السامعين. وفي أثناء القدَّاس رأى فمه كأنه ملتهب نارًا، كما أبصر حمامة تنطق من فيه.

رأى القديس باسيليوس كأن ملاكين يحيطان بالراهب أفرام، فأرسل إليه شماسًا يستدعيه بعد العظة مباشرة، لكنه التمس أن يكون اللقاء بعد التناول. وبالفعل التقى الاثنان بقبلة أخوية، وتبارك كل من الآخر. ثم قال له القديس باسيليوس على انفراد: لماذا شككت؟ مُظهرًا له أنه يلبس مُسحًا من الداخل، قائلاً له: "أما هذه الملابس الخارجية الفاخرة، فهي من أجل كرامة الخدمة فقط".

الجدّ الشريد

❖ ولد باسيليوس حوالي سنة ٩٢٣م منحدرًا من أسرة ضمَّت بعض الشهداء. كانت جدَّته لأبيه – القدِّيسة ماكرينا Macrina الكبرى – تلميذة وفيَّة للقدِّيس غريغوريوس العجائبي. وقد قاست الأسرة الأهوال خلال الاضطهاد الذي أثاره الإمبراطور دقلديانوس ومكسميانوس الثاني. توارى الجد سبع سنين في الغابات. أما جدّ باسيليوس لأمه وهو من كبار مُلاَّك الأراضي في بلاد بنطس، فقد احتمل العذاب ومات شهيدًا.

كان والد القدِّيس باسيليوس، ويدعى أيضًا باسيليوس، عالمًا شهيرًا ومعلِّمًا حاذقًا للبلاغة (البيان) في قيْصريَّة الجديدة ببنطس ومحاميًا عن الفضيلة، كما كانت شخصيَّته معتبرة جدًا في الكنيسة نظرًا لاستقامته وتقواه. تزوَّج هذا بامرأة فاضلة يتيمة تدعى "أماليا"، وكانت هي الأخرى مثلاً رائعًا للمرأة المسيحيَّة الفاضلة. أنتج هذا الزواج الموفَّق عشرة أطفال، خمسة بنين وخمس بنات، ويبدو أن أحد هؤلاء الأبناء مات وهو بعد طفل. وكان أكبر التسعة الأحياء ابنة تدعى ماكرينا على اسم جدَّتها، أما أكبر الذكور فكان باسيليوس صاحب السيرة والثاني نقراطيوس، والثالث غريغوريوس أسقف نيصص، أما الأصغر ويدعى بطرس أسقف سبسطيَّة Sebesete فقد ولد قبيل وفاة والده بزمنٍ قصيرٍ. ومن بين هذه المجموعة الممتازة تُذكر الكبرى وهى القدِّيسة المشهورة ماكرينا الصغرى التي كانت مثالاً رائعًا للحياة النُسكيَّة، والتي كان أخوها غريغوريوس يدعوها "معلِّمته"، فقد اجتذبته من رغبته الحارة للبلاغة وتولِي مركز الخطيب والمحامي ليعشق الرهبنة والتكريس الكامل للحياة الرهبانيَّة.

ثقافته:

① في طفولته

تربَّى على يد جدَّته ماكرينا في قرية قرب قيْصريَّة الجديدة. كانت ممتلكاتهم في أنيسي Annesi على نهر الإيريس Iris، الآن آرمك، والمناظر إلى جوارها ذات جمال خيالي. في أنيسي شيدت أُمُّه أماليا هيكلاً على اسم الأربعين شهيدًا الذين استشهدوا في سبسطيَّة، ونقلت إليه ذخائرهم المقدَّسة. في ذلك المكان الهادئ تلقَّى باسيليوس مبادئ الدين من جدَّته ووالده. كما كان أيضًا لأخته الكبيرة ماكرينا أثرها عليه. هذا وقد كان بيته العائلي بيت علم، وكان مدرسة تعلَّم فيها على أيدي والدٍ عالمٍ وباحثٍ.

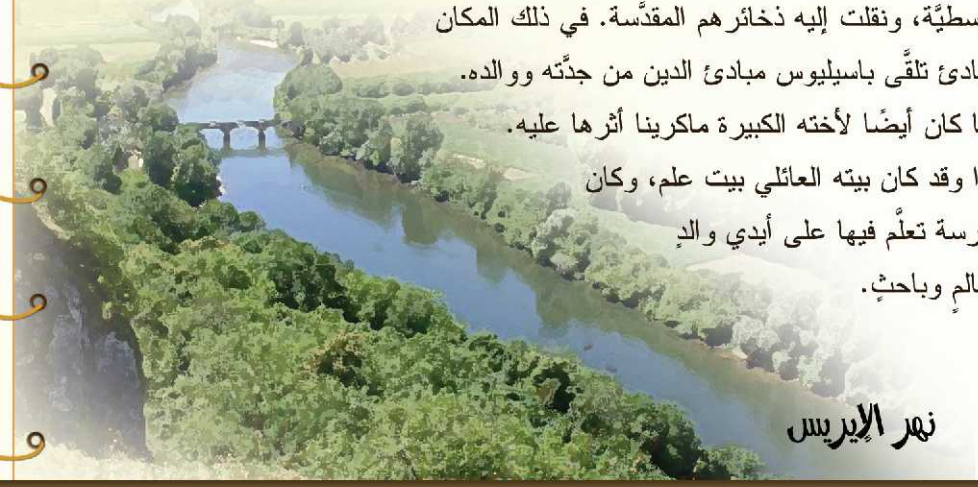

نهر الإيريس

٢ في قيصريّة كبادوكيّة:

أُرسل في سن مبكّرة إلى مدرسة في قيْصريَّة كبادوكيَّة. وتعرف هناك على غريغوريوس النزينزي. افترقا فذهب غريغوريوس إلى قيْصريَّة فلسطين وباسيليوس إلى القسطنطينيَّة، ثم اجتمعا في القسطنطينيَّة.

أُعجب باسيليوس إعجاب الأطفال برئيس الأساقفة ديانيوس Dianius. ويروى لنا غريغوريوس أنه حتى في تلك الفترة المبكّرة حاز باسيليوس شهرة عظيمة لسموّه العقلي فضلاً عن شخصيَّته التقيَّة. فكان فيلسوفًا بين الفلاسفة. وخطيبًا بين الخطباء، حتى قبل أن يدرس هذين الفرعين في العلوم دراسة منتظمة. وفوق كل شيء كان ككاهن بين المسيحيِّين قبل أن ينال رتبة الكهنوت.

٣ في القسطنطينيَّة:

انتقل باسيليوس إلى القسطنطينيَّة، حيث درس البيان والفلسفة بنجاح.

٤ في أثينا:

ارتحل إلى أثينا عام ١٥٣م طبقًا لما كان متبعًا آنذاك بالنسبة إلى الذين يريدون أن يتموا دراستهم العليا.

٥ صداقته مع القدّيس غريغوريوس النزينزي:

التقي في أثينا بصديق عظيم وهو غريغوريوس النزينزي. ارتبط الاثنان بصداقة خالدة ذهبت مضرب المثل. نقل لنا القدِّيس غريغوريوس صورة عن هذه الصداقة، فقال: [لما حصل التعارف بيننا واتَّضحت رغبتنا المشتركة في دراسة الفلسفة الحقيقيَّة، وأصبح كل منَّا للآخر كل شيء، كان لنا سقف بيت واحد، وطاولة واحدة ندرس عليها، وعواطف مشتركة، أن أعيننا كانت تحلق نحو هدفٍ واحدٍ، وعاطفتنا لم تكن إلَّا لتزيد وتترسَّخ يومًا بعد يوم. أن الشهوات الجسديَّة تزول ولكن المحبَّة التي تمُتُ إلى الله بصلة هي ثابتة لأن موضوعها ثابت، وبقدر ما تتَّضح جمالاتها وتُكتشف بقدر ذلك تربط من جمعتهم برباط المحبَّة نفسها[٢].] كما كتب عنها: [إني أتنشَّقك أكثر ممَّا أتنشَّق الهواء، وأنا سواء كنت حاضرًا أم غائبًا، لا أعيش إلَّا الوقت الذي أنت فيه معي.]

يقول غريغوريوس أن شهرة باسيليوس كانت قد سبقته إلى أثينا، فانتظره كثير من الشبَّان وتنافسوا على صداقته. أمضى باسيليوس قرابة خمسة أعوام في أثينا. لازمه في الدراسة في أثينا الأمير يوليانوس ابن عم قسطنطيوس الإمبراطور الحاكم آنذاك. وكان الأمير الشاب

تربطه بباسيليوس صداقة قديمة جدًا، وقد اعتاد أن يدرس معه الكتاب المقدَّس ويعدِّد المقارنات بين تعاليم الكتاب السامية ودروس أساتذته الوثنيِّين، ومع كل هذا فإن يوليانوس حينما صار إمبراطورًا فيما بعد ارتدَّ عن المسيحيَّة وصار يعرف في التاريخ باسم يوليانوس الجاحد أو المرتدّ.

أكمل باسيليوس نهله للعلم في أثينا، ودرس فيها علي أيدي أساتذة مشهورين، ومنهم برفيريوس إمام الفصحاء والبلغاء، وتعمَّق في درس اللغة اليونانيَّة وقواعدها وتاريخها وآدابها، كما أنه تبحَّر في الفلسفة والبلاغة وعلم الفلك والعلوم الطبيعيَّة والطب[٣]. تلألأت عبقريَّة باسيليوس الدراسيَّة في أثينا. أما أشهر أساتذته الذين تتلمذ لهم في أثينا فكانا بروهاريسوس المسيحي الأرمنِّي، وهيميريوس الوثني البيثيني.

العودة إلى الوطن:

حان الوقت وحل يوم الرحيل وعودته إلى وطنه. حاول أصدقاؤه أن يحجزوه، لكن باسيليوس تعلَّق بغرضه وتغلَّب على جهود رفاقه لتعويقه في أثينا. رحَّبت قيْصريَّة كبادوكيَّة به كأحد أبنائها الممتازين. أسرع الأساتذة إلى ضمِّه إلى صفوفهم، إذ عرضوا عليه وظيفة مدرِّس للبيان بقيْصريَّة. فقبل واشتغل بالتدريس لمدة عامين تقريبًا بنجاح عظيم. وفي خلال السنتين أحرز باسيليوس شهرة عالية حتى أن قيْصريَّة الجديدة أرسلت وفدًا يلتمس منه الأشغال بالتدريس في مدينتهم، ولكن عبثًا حاولوا استمالته بالوعود السخيَّة.

وسط جو الإعجاب والمديح الذي أثارته ثقافته وفصاحته، يبدو أيضًا أن باسيليوس قد داخله نوع من والكبرياء. تطلَّع إلى المراكز العالميَّة العالية التي يشغلها أمثاله. تدخَّلت أخته التقيَّة ماكرينا، فحثَّته على طلب العلوم التقويَّة، وشرعت تذكر له بطلان أمجاد العالم. وبواسطة نفوذها تيقَّظت فيه ثانية مثاليَّته. كانت أولى خطواته هي نوال سرّ العماد. وقد وصف لنا هو نفسه في رسالة قال فيها: [فجأة صحوت كما من نومٍ عميقٍ، ورأيت نور إنجيل الحق العجيب، وأدركت تفاهة حكمة رؤساء هذا العالم التي صارت كلا شيء (١ كو ٢: ٦). ذرفت سيلاً من الدموع على حياتي التعيسة، وصلَّيت لأجد مرشدًا يمكنه أن يبث فيّ مبادئ التقوى... وأصبح جل اهتمامي أن أعمل علي إصلاح أخلاقي بعد أن أفسدها طول اختلاطي برفقاء الشرّ، ثم قرأت الإنجيل ورأيت أن لا سبيل إلى بلوغ الكمال إلاَّ بأن يبيع المرء ماله ويعطي للفقراء نصيبهم، ويتخلَّى عن مطامع الحياة جميعها، حتى لا يبقى للنفس ما يعكِّر صفوها من كل ما في الدنيا من أشياء[٤].]

أخته التقيَّة ماكرينا

وبعد عماده (سنة ٣٠٣) بقليل سيم أغنسطس (قارئًا) بيد الأنبا ديانيوس أسقف قيْصريَّة.

شوقه للحياة النُسكيَّة:

بعد أن استراحت أُمُّه وأخته ماكرينا من أعبائهما العائليَّة، حوّلتا منزل الأسرة في أنيسي على نهر الإيريس ليكون منْسَكًا في وسط تلك الربوع الهادئة، وأقامتا هناك في حياة نسكيَّة، فكانت أصوات التسبيح والترتيل لا تنقطع عندهم ليلاً ونهارًا. وسرعان ما جذب هذا المنْسَك إليه – على الرغم من خشونة الحياة فيه – عذارى من كبرى العائلات في كبادوكيَّة. هكذا أفاق باسيليوس على صوت أخته ماكرينا، وكرَّس حياته لمن أحبَّه. بل واختار طريق الوِحدة. ترك منصبه وتخلَّى عن أمواله فأمسى فقيرًا يكسب عيشه بعمل يديه.

رحلة لاكتشاف الحياة الرهبانيَّة:

نحو سنة ٣٥٨م، حينما كان باسيليوس دون الثلاثين من عمره، ترك قيْصريَّة ليبحث عن النُسَّاك المشهورين ليحتذي بهم. فزار منطقة الإسكندريَّة وصعيد مصر وفلسطين وسوريا وما بين النهرين. ظل يدرس لمدة سنتين تقريبًا التقاليد الرهبانيَّة المثاليَّة التي ترجع إلى القدِّيس أنطونيوس الكبير أب الرهبان. وكان ما رآه في حياة الرهبان والمتوحِّدين خلال رحلاته التي استغرقت سنتين، ثم عاد إلى قيْصريَّة.

يقول: [تعجَّبت لزهدهم في الحياة، واحتمالهم في جهادهم. وكنت مندهشًا لمثابرتهم في الصلاة، ونصرتهم على النوم. لم يكونوا خاضعين لضرورة الطبيعة، محتفظين دومًا بهدفهم الروحي عاليًا، متحرِّرين من الجوع والعطش، ومن البرد والعرى، ولم يستسلموا أبدًا للجسد، ولم يُعيروه انتباهًا، وكأنهم كانوا يعيشون كما في أجسادٍ ليست لهم. كانوا دائمًا يُظهرون في كل عمل أن الحياة زائلة وقصيرة. وكانت مواطنة كل أحدٍ هي في السماء. هذا كله أثار إعجابي. طوَّبت حياة هؤلاء الرجال، لأنهم كانوا بالفعل يحملون في أجسادهم إماتة يسوع، واشتهيت إن أمكنني أن أتمثَّل بهم[٥].]

انفراده بالقرب من قيْصريَّة الجديدة على نهر الإيريس:

فكَّر أولاً في تأسيس دير في إقليم تبرينا بجوار إرينازوس موطن صديقه غريغوريوس، ثم عاد فاختار بقعة في البنطس تسمى إيبوار على نهر الإيريس Iris، بالقرب من قيْصريَّة الجديدة، وقريبًا من مكان خلوة والدته وأخته وسائر الرفقة معها. امتاز الموضع بجمال طبيعي خلاب وهدوء شاعري. هناك انفرد متوحِّدا. ما لبث أن التفَّ حوله أصدقاء.

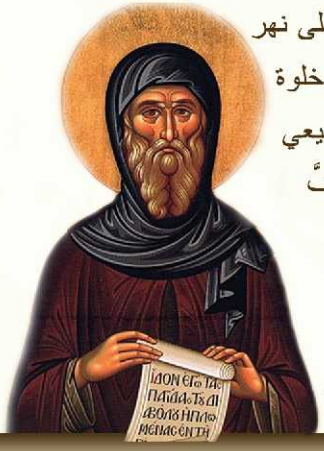

القدِّيس

أنطونيوس الكبير أب الرهبان

يشاركونه حياة النُسك.

كتب إلى صديقه غريغوريوس يقول: [لقد أرشدني الله إلى منطقة تتَّفق تمامًا وطريقتي في الحياة. أنها حقًا ما كنا نتوق إليه في أحلام يقظتنا. إن ما كان الخيال يُظهره لي بعيدًا أصبحتُ أراه الآن أمامي. جبل عال تكسوه غابة كثيفة، ترويها في الشمال جداول دائمة الجريان، وعند سفح الجبل يمتد سهل فسيح كثير الفاكهة للأبخرة... أما الغابة المحيطة حيث تتنوَّع الشجار وتزدحم، فهي تعزلني عن العالم كما في قلعة حصينة. والبريَّة محاطة بواديَّين ضيِّقين عميقين. على أحد جانبيها ينحدر مجرى الماء بقوَّة من الجبل، مكونًا حاجزًا من الصعب عبوره. وعلى الجانب الآخر حافة فسيحة تجعل الاقتراب منه أمرًا صعبًا. ويقع كوخي على القمَّة، وبذا أشرف على السهل الفسيح كما على طريق الإيريس... هل أحدِّثك عن الطيور المغرِّدة الجميلة والنباتات الغنيَّة بأزهارها؟ لكن ما يبهجني أكثر من كل ذلك هو السكون الذي يخيِّم على المكان، لا يقطعه إلَّا بعض الصيَّادين الذين يأتون من وقت لآخر لصيد الماعز البرِّي والأيائل التي تكثر في البريَّة. كيف استبدل هذا المكان بآخر؟!]

هذه الصورة الخياليَّة تكشف لنا عن إحساس باسيليوس المرهف وتذوُّقه للفن وجمال الطبيعة، متمشِّيًا في ذلك مع المسيحيَّة التي ترى في الطبيعة وما فيها من جمال كتابًا مفتوحًا، تقرأ فيه عن قدرة الخالق وحكمته وإنعامه, والحق أن القدِّيس باسيليوس كان يعشق الطبيعة، وله تأمَّلات كثيرة في السماء، والنجوم، والطيور وأجناسها، والأسماك، والحيوان، والنبات وغيرها. كان يصفها وصف عالم عاكف على دراستها. وكان يرى حكمة الله وراء جميعها.

رفض صديقه غريغوريوس في البداية أن يرافقه، لكنه عاد وصار في صحبته. جمعا مختارات من كتابات أوريجينوس مع المبدأين اللذين كان لهما أثرهما القوي على انتشار الحياة الرهبانيَّة الجماعيَّة، التي عرفت فيما بعد باسم "الفيلوكاليا"، والتي معناها "محبَّة الصلاح". هذه التي أضفت على القدِّيس باسيليوس اسم "واضع قانون الرهبنة اليونانيَّة".

في تلك البقعة الهادئة اعتقد القدِّيس – وقد تحرَّر من كل اهتمامات الحياة العالميَّة ومعطِّلاتها وتشتُّت الفكر فيها – أنه يستطيع أن يخدم الله حسنًا. يقول: [ما هو أكثر غبطة من مشابهة الملائكة على الأرض؟! في بدء النهار ينهض الإنسان للصلاة وتسبيح الخالق بالترتيل والأغاني الروحيَّة. ومع شروق الشمس يبدأ العمل مصحوبًا بالصلاة أينما ذهب مملِّحًا عمله بالتسبيح. إن سكون الوحدة هو بدء تنقية النفس، والعقل أن لا يضطرب لأي شيءٍ، ولم يتشتَّت عن طريق الحواس في أمور العالم، يرتد إلى ذاته، ويرفع إلى التفكير في الله. هناك

مكان نسكه

في الوحدة يجد في الأسفار المقدَّسة – كما في مخزن الأدويَّة – العلاج الحقيقي لعلّته.]

بدأ في خلوته في بنطس نظامًا نسكيًا قاسيًا، يبدو أنه تسبَّب في ضعف صحَّته ضعفًا شديدًا، الأمر الذي شكا منه مرارًا كثيرة في رسائله، ولكن من الإنصاف أيضًا للحقيقة أن نقول إنه ذُكر عن ملازمة المرض له منذ طفولته.

كان له تفكير متكامل عن الحياة الرهبانيَّة، وتخطيط لقوانينها ونظمها، فهو يريدها أن تتناغم مع نمو الإنسان الطبيعي، وأن تكون فرصة لاستثمار مواهب الراهب، بذلك رفض المبالغة في النُسك. كما عزم علي مزج نظامي التوحُّد والشركة معًا، وعلي جمع النُسَّاك مع الرهبان دون أن يضع حواجز بينهما، حتى لا يكون عند الراهب فلسفة وحكمة دون حياة مشتركة، ولا حياة شركة دون فلسفة، وهكذا يمكن للطريقتين أن تتبادلان معًا، مثل البحر والأرض، الخير والمنفعة للوصول في النهاية إلى مجد الله الأعظم.

اتَّسم حتى في تلك الفترة الرهبانيَّة بالعمل، فاستطاع تأسيس عددًا من الأديرة.

سيامته قسًا:

إذ تنيَّح ديانيوس رئيس أساقفة قيْصريَّة وخلَفه يوسابيوس، أقنع القدِّيس غريغوريوس النزينزى باسيليوس بالذهاب إلى قيْصريَّة، فذهب إلى هناك ورُسم قسًا بيد يوسابيوس سنة ٣٦٤م، بعد تمنُّع شديد. صار باسيليوس الشخصيَّة ذات الأثر الأكبر في كل الإيبارشيَّة، وكان هذا عاملاً على إظهار ضعف شخصيَّة يوسابيوس، الأمر الذي أدَّى إلى فتور العلاقات بينه وبين أسقفه.

عودة إلى الوحدة:

غادر قيْصريَّة وعاد إلى منْسكِه يصحبة صديقه غريغوريوس وهناك أمضى الصديقان ثلاث سنوات في الوحدة، عكفا خلالها على الكتابة ضد الإمبراطور يوليانوس الذي ارتدَّ عن المسيحيَّة.

عاد باسيليوس حالاً إلى قيْصريَّة:

لما ارتقى العرش الإمبراطور فالنس الأريوسي، حاول أن ينشر هذا المعتقد الفاسد. طالب الشعب بعودة باسيليوس، فحاول يوسابيوس أن يستميل غريغوريوس ليكون بجانبه، ولكن هذا الأخير رفض العودة بدون صديقه باسيليوس. وبفضل مجهودات غريغوريوس تم التوفيق بينهما.

اطمأن الأسقف إليه وقدَّره حق قدرِه. وانقطع باسيليوس منذ ذاك عن الدرس لينصرف إلى

سيامته قسًا

الجهاد. شُغِف يوسابيوس القيصري بالاستفادة من القدِّيس باسيليوس وأعماله في إيبارشيَّته. فكان مستشارًا صالحًا ومعينًا ماهرًا ومفسِّرا للكتاب المقدَّس. وكان العكَّاز لشيخوخة يوسابيوس وسندًا له. فمن أعماله:

١ **اهتمامه بسلامة الإيمان:** مستخدمًا كل فصاحته وعلمه لإحباط هجمات الأريوسيِّين.

٢ **الاهتمام بالمرضى والمحتاجين:** من المحتمل أن المؤسَّسة العظيمة التي أقامها في ضواحي قيْصريَّة لعلاج المرضى وإراحة المسافرين والفقراء، قد وُضع تصميمها، إن لم يكن هو الذي أسَّسها في أواخر سنيّ قسِّيسيَّته. وقد عُرفت هذه المؤسَّسة أخيرًا باسيلياد، وكانت بمثابة الأم. وسرعان ما قامت مؤسَّسات أخرى مشابهة في المناطق القرويَّة للإقليم يشرف على كل منها خوري إيسكوبُس.

٣ **تصدِّيه للمجاعة** التي اجتاحت كل الأقاليم سنة ٨٦٣م.

ذاع صيت الكاهن باسيليوس في كل البقاع، فاتخذه الجميع مرشدًا ومشيرًا، وأصبحت السلطات العموميَّة نفسها مضطرة أن تقيم وزنًا لهذا الكاهن الذي استطاع وحده أن يصدّ نكبة عامة عن البلاد، فصار رأس الأسقفيَّة بلا منازع، وأسند إليه يوسابيوس الأسقف الشيخ جميع شئونه٦.

رئيس أساقفة قيْصريَّة:

إذ مات يوسابيوس رئيس أساقفة قيْصريَّة عام ٣٧٠م، نشأت مشكلة عظيمة بين المسيحيِّين، بسبب أهميَّة كنيسة قيْصريَّة، لأن أسقفها كان يشرف علي خمسين أسقفًا آخر، ولذلك كان مقامه خطيرًا في الإقليم كله. ومما جعل اختيار خلف ليوسابيوس مشكلة دقيقة، وهي جلوس الإمبراطور فالنس علي العرش، وهو عدو الكنيسة الأرثوذكسيَّة اللدود. أرسل باسيليوس إلى صديقه غريغوريوس يلح عليه في الحضور بحجَّة اعتلال صحَّته، وإن كان قصده في الحقيقة ترشيحه لذلك المنصب لإنقاذ الكنيسة من التيار الأريوسي. شعر غريغوريوس أن هناك شيئًا غامضًا في الموضوع، فقطع رحلته وعاد ثانية إلى نيزينزا، بعد أن وجَّه إلى باسيليوس رسالة عتاب. لقد استنكف غريغوريوس عن مساعدة صديقة باسيليوس في هذه المعركة الطاحنة، فهو رجل لطيف المشاعر حسَّاس الضمير، يخاف من المعارك.

وقد قام غريغوريوس الأسقف (والد غريغوريوس النزينزي)، وكان شيخًا وقورًا، بدور هام في هذا الموضوع. فقد أملى على ابنه غريغوريوس خطابًا إلى الكهنة والرهبان والحكام والشعب في قيْصريَّة يدعوهم إلى اختيار باسيليوس.

كما أرسل خطابًا آخر إلى الأساقفة الذين

تصديه للمجاعة

لهم حق الانتخاب يحثُّهم فيه إلاَّ يجعلوا ضعف باسيليوس الصحِّي حائلاً دون انتفاع الكنيسة بمواهبه وتفوُّقه الملحوظ في الروحيَّات والعلوم الكنسيَّة. وكان أكثر الأساقفة نفوذًا هو يوسابيوس أسقف ساموساط، فكتب إليه غريغوريوس العجوز مقنعًا إيَّاه بضرورة زيارة قيْصريَّة وأن يأخذ على عاتقه توجيه الرأي العام لهذه المهمة. غادر الشيخ الوقور غريغوريوس فراش مرضه محمولاً على نقَّالة إلى قيْصريَّة مخاطرًا بنفسه، واشترك في سيامة باسيليوس، وكان ذلك سنة ٣٧٠م.

فرح جميع الناس لرسامة باسيليوس من مسيحيِّين ووثنيِّين، لأنهم جميعهم لم ينسوا ما صنعه في مدينتهم أيام المجاعة. أرسل البابا أثناسيوس الرسولي مهنئًا كبادوكيَّة بهذا التوفيق. كان الصراع عنيفًا، فقد شاع يومًا في البلاد أنه قد مات فصدَق الشعب الإشاعة لما يعرفونه عن هزاله وأمراضه، فتسارع الأساقفة بحضور مأتمه، وبعضهم فرحون بالتخلص من مضايقته٧.

أقام مستشفي للمرضى وضحايا الوباء، كما أقام ملاجئ للفقراء، وأماكن لاستقبال المسافرين والغرباء، وسرعان ما اكتسب حب شعبه بسرعةٍ فائقة. لكن واجهته مصاعب كثيرة.

القدّيس باسيليوس رجل الإصلاح الوطني والكنسي:

أولاً: كان محبًا لوطنه، كبادوكيَّة أو بنتس، في وقت كانت الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، خاصة في أيام قنسطنطس وفالنس لا تبالي إلاَّ بمصلحتها الخاصة على حساب الشعب الشرقي.

ثانيًا: تصدَّى القدِّيس للسيمونيَّة (سيامة الكهنة مقابل دفع مبالغ معيَّنة).

الصعاب التي واجهته في أسقفيَّته:

أولاً الأساقفة: كان هناك أساقفة قد رفضوا الاشتراك في رسامته، تحوَّلوا من العداء المكشوف إلى المقاومة السريَّة.

ثانيًا تقسيم كبادوكيَّة: صمَّمت حكومة الإمبراطور على تقسيم كبادوكيَّة إلى إقليمين، وكان المقصود من ذلك إضعاف مدينة قيْصريَّة، أو بالأحرى إضعاف باسيليوس وقد اُختيرت مدينة تيانا لتكون العاصمة الجديدة للإقليم الثاني..

سام أيضًا أخاه غريغوريوس على نيصص بعد أن طرده منها الأريوسيُّون.

ثالثًا الإمبراطور فالنس: لم يعرف الخوف ولا الرهبة في تعامله مع فالنس Valens

الإمبراطور فالنس

الأريوسيّ وقوّاده. بناء على مشورة الأريوسيِّين نفي الإمبراطور باسيليوس لأجل سلام الشرق. مرض غلاطس (غالات) ابن فالنس الوحيد مرضًا مفاجئًا وخطيرًا، وعزَّت أُمُّه دومينيكا مرضه إلى الأمر بنفي القدِّيس، فأرسل الإمبراطور اثنين يتوسّلان إلى القدِّيس أن يصلِّي للطفل الذي لم يكن قد تعمَّد بعد. اشترط القدِّيس قبل ذهابه أن يعمّد الطفل بعد شفائه على يد كاهن أرثوذكسي، وأن يُلقّن الإيمان القويم. شُفي الطفل بصلاة القدِّيس، لكن الإمبراطور عمّد الطفل على يد أسقف أريوسي، فساء حال الطفل ومات في تلك الليلة. مرة أخرى استسلم فالنس لضغط أعداء باسيليوس، وفي تلك المرة رفض القلم أن يطاوع الإمبراطور، وقُصف أكثر من مرة في يده المرتعشة، ممَّا جعله يمتلئ خوفًا فعدل عن عزمه، وبقي القدِّيس سيِّد الموقف.

الاضطرابات في السنوات الختاميَّة:

بجانب المرض مات بعض الأصدقاء وحلفائه الأساسيِّين. ففي سنة ٣٧٣م انتقل القدِّيس أثناسيوس الرسولي. وفي سنة ٤٧٣م انتقل الشيخ الوقور غريغوريوس النزينزي، ونُفي يوسابيوس الساموطي. ورفع الأريوسيِّين رؤوسهم ثانية. عقدوا مجمعًا في أنقرة أدانوا فيه أصحاب عقيدة المساواة في الجوهر! واتَّخذوا إجراءات كيديَّة ضد القدِّيس غريغوريوس النيسي، وكان الغرض منها جرح باسيليوس في شخص أخيه، وانتهوا إلى عقد مجمع في نيصص حَكم بإدانة غريغوريوس وعزله، ونُفيَ بعد ذلك بوقت ليس بطويل.

لم يعد جسمه قادرًا على تحمُّل الأعباء، فقد مزَّقه العمل المتواصل والمرض، كما كانت قسوة الشتاء تحجزه أحيانًا كثيرة كسجين في منزله، بل وفي حجرته. وفي أول يناير سنة ٩٧٣م وهو لم يبلغ بعد الخمسين من عمره، سُمع يخاطب الله قائلاً: "بين يديك أستودع روحي". وللحال انطلق الروح العظيم.

---

١ دير السريان: القديس باسيليوس الكبير، ١٩٦٠، ص ٣-٧.
٢ الأب الياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٧.
٣ الأب الياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٦.
4 *Letters, 223:2.*
5 *Letters, 223:2.*
٦ جان- ماري رونّا: القديس باسيليوس الكبير، ترجمة الأب عقيقي اليسوعي، منشورات المعادي، ص ٢٢.
٧ جان- ماري رونّا: القديس باسيليوس الكبير، ترجمة الأب عقيقي اليسوعي، منشورات المعادي، ص ٢٥- ٢٦.